

الدرر الحسان

في وصايا الصحابة ومن تبعهم بإحسان

إظلاله على وصايا

الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه

أ.د. محمد عبد العليم الدسوقي

الأستاذ بجامعة الأزهر

جميع المناحي القضائية والإدارية؛ وسنرى كيف مثلت (رسائله الشهيرة إلى أبي موسى الأشعري في القضاء) مرجعاً أساسياً في إرساء قواعد العدالة، وكيف شددت على التسوية بين الخصوم وعدم التفرقة بين قوي وضعيف، كما تميزت بجمعها بين صلاح الدين وصلاح الدنيا، وبالواقعية والعملية؛ وبالنزاهة والحرص على المال العام والتحذير من استغلال المنصب أو الوقوع في شبهات الفساد والكسب غير المشروع، واتسمت بالوضوح والبعد عن التنظير المعقد.. ومن ثم قدمت حلولاً مباشرة وتوجيهات عملية يمكن للمسلم أو الحاكم أو الوالي تطبيقها في حياته اليومية. ولنبداً أولاً بالتعريف به - وإن كان غنياً عن التعريف:-

أ- نبذة مختصرة عنه:

هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي، ترجع أصوله

إلى الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن وآله.

وبعد؛ فقد تميزت وصايا الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت ٢٣هـ) بخصائص فريدة جعلتها منهجاً تربوياً وإدارياً شاملاً، وصالحة لكل زمان ومكان، وشاملة لسانر شؤون الفرد والمجتمع، والحاكم والمحكوم، والقاضي والمتقاضى، والجندي والرعية، وغلب عليها وضوح العبارة، وقوة التوجيه، وربط العمل بتقوى الله ومراقبته، مع عناية ظاهرة بالعدل؛ وأداء الأمانة؛ وصيانة المال العام؛ وإعداد الرجال؛ وتحمل المسؤولية.

وتنبع هذه الأهمية من شخصيته القيادية وخبرته العميقة في إدارة شؤون الدولة والمجتمع.. فوصاياه يغلب عليها الشمولية والتكامل ولا تقتصر على الجانب الديني الفقهي فقط، بل تجمع -كما سنرى- بين شؤون الدين والدنيا، لتشمل التوجيهات العبادية، والأخلاقية، والاقتصادية، والعسكرية، والسياسية.

كما أنها تركز على العدل والمساواة في

لنسب الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يلتقي معه عند كعب بن لؤي؛ وهو ثاني الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة. الملقب بـ(الفاروق) لأنه كان يفرق بين الحق والباطل وبه أَمَرَ الله الإسلام والمسلمين.

وهو من فقهاء الصحابة وأهل الرأي السديد، وقد وافقت آراؤه الوحي في مواطن عديدة ومشهورة، وكان أن تولى الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه، وحكم لمدة عشر سنوات شهدت توسعاً في الدولة الإسلامية، واشتهر بعدله وإنصافه وتأثيره الكبير في التاريخ الإسلامي، فهو الذي وضع التاريخ الهجري وعمل به في إدارة الدولة، والذي أصدر وثيقة (العهد العمرية) التي تؤمن حقوق أهل الكتاب.

أسلم رضي الله عنه وكان إسلامه عزاً وقوة للمسلمين؛ كما كانت هجرته نصراً للدين، شهد المشاهد مع رسول الله، ثم تولى الخلافة بعد أبي بكر وكان أول من حمل لقب (أمير المؤمنين)، وكان عالماً فقيهاً، وعادلاً رحيماً، وكان سديد القول والفضل، وقد وافقت آراؤه القرآن في عدة مرات، كما كان مثلاً في الزهد والتقشف؛ وقد شهد له بذلك طلحة بن عبيد الله أقرب الناس إليه، يقول طلحة - وبنحوه سعد بن أبي وقاص -: "ما كان عمر بن الخطاب بأولنا إسلاماً ولا أقدمنا هجرة، ولكنه كان أزهدنا في الدنيا وأرغبنا في الآخرة". وإنما يكمن سر ذلك في معاشته للقرآن الكريم ومصاحبته للنبي الأمين، وفي نظرته للعالم وأنها دار اختبار وابتلاء، ومن ثم فهي مزرعة للآخرة.

لقد اشتهر الفاروق عمر بالشجاعة وتحمل المسؤولية في حكمه، وفي عهده تم فتح بلاد الشام، والعراق، وفلسطين، ومصر، وفارس، مما وسع رقعة الدولة الإسلامية كثيراً.. ثم

كان أن استشهد رضي الله عنه سنة ٢٣هـ بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي غدرًا وهو يوم المسلمين في صلاة الفجر.

ب- وصاياه:

كان للفاروق وصايا عظيمة لأبنائه ولمن حوله، وأخبر ابن القيم -كما سيأتي- بأن العلماء كانوا يتلقون وصاياه بالقبول، ويبنون على بعضها أصول الحكم والشهادة، ويوصون الأحكام والمفتين بتأملها، والتفقه فيها.. وتلك هي أبرز وصاياه

١- وصيته لابنه في غيبة غابها:

كتب عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، إلى ابنه عبد الله رضي الله عنهما في غيبة غابها: «أما بعد: إني أوصيك بتقوى الله؛ فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن شكره زاده، ومن أقرضه جزاه، فاجعل التقوى جلاءً بصرك، وعماد ظهرك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسنة له، ولا خير لمن لا خشية له، ولا جديد لمن لا خلق له»، ذكره أحمد في الزهد (٣٧٤)، وأبو نعيم في الحلية (٥٢/١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٩٧/٢)، والذهبي في السير (٥١٤/٢).

وهذه وصية جامعة؛ جعل عمر رضي الله عنه فيها التقوى أساس العمل كله؛ إذ بها يستقيم القلب والعمل، ويستعين العبد بربه، ويزن أقواله وأفعاله بميزان الخوف والرجاء، كما أنها وصية الله للأولين والآخرين ووصية الأنبياء لاتباعهم من الموحيين، وهي (سبب الصلاح ومنبع الفلاح والإصلاح، إذ مؤداها: أن يُطاع رب العزة فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر

٢- وصاياه لأبي موسى الأشعري في القضاء:

بما يعد قانوناً عاماً للقضاة والحكام والأمراء، لما تضمنته من ضوابط القضاء والحكم بين المتخاصمين، فقد كتب عمر الفاروق إلى أبي



موسى الأشعري - فيما أخرجه الدار قطني في سننه (٤٤٨ / ٣) والبيهقي في الكبرى (١٠ / ١٣٥) والألباني في إرواء الغليل (٢٦١٩) وغيرهم - كتب يقول: «إن القضاء فريضة مُحَكِّمة، وسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، فافهم إذا أدلي إليك؛ فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وأس - ساو - بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك حتى لا يطمع شريف في خيفك - أي: في ملك معه لشرقه أو لغير ذلك مما قد يشفع للظالم عند ضعاف النفوس من القضاة - ولا يبيِّنُ ضعيف في عدلك، البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين الناس إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا، ومن ادعى حقا غائبا أو بينة، فاضرب له أمدا ينتهي إليه، فإن جاء ببينة أعطيت به حقه، فإن أعجزه ذلك استحلت عليه القضية؛ فإن ذلك أبلغ في العذر وأجلى للعمى، ولا يمتنع من قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه رأيك، وهديت لرشدك أن تراجع الحق؛ فإن الحق قديم لا يبطل الحق شيء، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل.

والمسلمون عدول بعضهم على بعض في الشهادات، إلا مجلودا في حد، أو مدركا عليه شهادة الزور، أو متهما في ولاء أو قرابة؛ فإن الله تولى من العباد السرائر، وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان.. ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ليس في كتاب أو سنة، ثم قايِسْ الأمور عند ذلك، واعرف الأمثال والأشباه ثم اعمد إلى أحبها إلى الله فيما ترى وأشبهاها بالحق.

وايّاك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس عند الخصومة والتنكر؛ فإن القضاء في مواطن الحق يوجب الله به الأجر، ويحسن به الذخر، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه، كفاف الله ما بينه وبين الناس،

ومن تزيّن لهم بما ليس في قلبه؛ شأنه إلى الله تعالى؛ فإن الله لا يقبل من العباد إلا ما كان له خالصا، وما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته؟ والسلام عليكم ورحمة الله..

وعن مكانة وصية عمر هذه لأبي موسى والإشادة بها؛ يقول شيخ الاسلام في منهاج السنة ٦ / ٣٧: «رسالة عمر المشهورة في القضاء إلى أبي موسى تداولها الفقهاء وبنوا عليها، واعتمدوا على ما فيها من الفقه وأصول الفقه، ويقول ابن القيم في إعلام الموقعين ١ / ٧٢: "وهذا كتاب جليل تلقاه العلماء بالقول، وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة، والحاكم والمفتي أحوج شيء إليه وإلى تأمله والتفقه فيه".

وهو بالإضافة إلى هذا؛ حجة دامغة لكل حاكم أراد الحق وارتضاه، ورسالة قوية لكل قاض أحب العدل وابتغاه، لما تضمنته من أصول عظيمة في القضاء، من أهمها؛ المساواة بين الخصوم، وإقامة البينة، وأعمال اليمين، وجواز الصلح المنضبط بالشرع، والرجوع إلى الحق متى ظهر، واجتناب الهوى والغضب، وبذل غاية الوسع في فهم النصوص واستنباط الحكم عند عدم النص.

ولا غرو فإنها بمثابة دستور مُحَكَّم؛ يُرسي معالم القضاء النزيه؛ البعيد عن الأهواء؛ والرامي إلى نشدان الحق؛ والساعي لنشر العدل بين المتخاصمين.. وتدعو إلى المساواة بين الناس في مجالس القضاء، حتى لا يطمع شريف في خيفه ولا يبيس ضعيف من عدله.. وإلى إرساء قاعدة ومبدأ؛ (البينة تكون على المدعي واليمين يكون على من يُنكر) وتيك قاعدة ذهبية تضيع بغيابها حقوق العباد. كما أن الوصية تكشف حقيقة أن الصلح بين المسلمين واجب شرعي إلا صلحا أحل حراما

علمه ووقفه الله بالعمل به، وفي التنزيل يقول أحكم الحاكمين: «ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين» (فصلت: ٣٣). والشقي من شغل بغيره، ونسي نفسه.

٤- وصيته للولاة في العدل والرعية

ومن وصايا بعض عماله، ما كتب به إلى عامله على البصرة، فقد كتب يقول: «أما بعد، فإن للناس نفرة عن سلطانهم، فأعوذ بالله أن يدركني، وإياك عمياء مجهولة، وضغائن محمولة، فأقم الحدود ولو ساعة من نهار، وإذا عرض لك أمران: أحدهما لله والآخر للدنيا، فأثر نصيبك من الله؛ فإن الدنيا تنفذ والآخرة تبقى، وأخف الضائق واجعلهم يدا يدا؛ ورجلا رجلا، عد مريض المسلمين؛ واحضر جنازهم؛ واقتح بابك؛ وباشر أمورهم بنفسك؛ فإنما أنت رجل منهم؛ غير أن الله جعلك أثقلهم حملا، وقد بلغني أنه قد فشا لك ولأهل بيتك هبة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثله؛ فأياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب؛ فلم يكن لها هم إلا السمن والماء؛ وإنما حثفها في السمن، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته؛ وأشقى الناس من شقيت به رعيته، كذا في حياة الصحابة ٢/ ٣٦٨.

وفي هذه الكلمات تذكير للوالي بأن الولاية أمانة ومسؤولية وتكليف قبل أن تكون تشريفا، وأن صلاح الرعية مرتبط بصلاح من يتولى أمرها، وأن قرب الحاكم من الناس، وقيامه بحوائجهم، وابتعاده عن الترف والاستعلاء، من أسباب صلاح الرعية واستقامة الحكم.

٥- وصايا للشباب والجند ليزهدوا ويخشونوا؛

لقد كان عمر رضي الله عنه مضرب المثل في

أو حرم حلالا، وأن القاضي إذا قضى بقضاء اليوم؛ ثم راجع فيه رأيه فهدي فيه لرشده، فإن ذلك لا يمنعه أن يرجع فيه إلى الحق؛ فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التماسي في الباطل.

وفيها بيان أن القرآن والسنة هما الفيصل والأساس في حسم القضايا، وأنه إذا عرض على القاضي أمر أو مسألة ليس فيها قرآن ولا سنة، فعليه أن يقيس الأمور عند ذلك ويعرف الأمثال، ثم يعمد فيما يرى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق.. وبيان أن (صحة الفهم) و(حسن القصد) هما من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما.

٣- وكتب إلى أبي موسى رضي الله عنه أيضا:

ما جاء ذكره في حياة الصحابة وأورده ابن أبي شيبة في مصنفه ٨/ ٢٦٧ عن الضحاك؛ قال: كتب عمر إلى أبي موسى: «أما بعد؛ فإن القوة في العمل؛ أن لا تؤخر عمل اليوم لغد؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك تداركت عليكم الأعمال؛ فلا تدرون أيها تأخذون فأضعتم، وإن خيرتم أمر الآخرة على أمر الدنيا فاختاروا أمر الآخرة على أمر الدنيا، فإن الدنيا تفتنى والآخرة تبقى، وكونوا من الله على وجل؛ وتعلموا كتاب الله فإنه ينابيع العلوم وربيع القلوب».

فأين في زماننا من يستحضر هذه المعاني ويستحضر معها الوقوف بين يدي الله، وأن كل راع مسئول عن رعيته ومحاسب عنهم؟.. أين من يوقن بأن الدنيا مزرعة للآخرة وما هي إلا دار ممر لا دار مقر؟.. إن سعيد الدنيا والآخرة هو من انشغل بما كلف به، وقام بالواجب الذي عليه أولا، ثم دعا الناس لما



المقصود منها حمل الجند على القوة والجِدِّ والاستعداد، والبعد عن الترف الذي يُضعف العزائم. مع العناية بالفرسية والرمي وما تحتاج إليه الجيوش من أسباب القوة.

فهي دعوة لمخالفة أهل الكتاب؛ وأمر بأن يستتروا جميع الجسد، فيُغطى الجزء الأعلى منه بالرداء والأسفل بالإزار؛ وأن يلبسوا ما يحمي أقدامهم عند المشي؛ وأن يلزموا الرمي؛ والخشونة في العيش؛ وركوب الخيل بلا سرج تشبهاً بـ(إسماعيل عليه السلام) وبـ(معد بن عدنان) جدي العرب.

وهذه المعاني تؤيدها السنة؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: (ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً)، وقال لسعد رضي الله عنه: (ارم سعد، فذاك أبي وأمي)، وهما في الصحيحين.. على أن هذه الوصية ينبغي أن توضع في سياقها لا أن تفهم على غير مرادها؛ فهي في سياق إعداد الجند، وحفظ قوتهم واستعدادهم للدفاع، والإفادة منها ما أمكن لغير الجند من شباب الأمة. وليست دعوة إلى الغلو في الخشونة أو ترك ما أباح الله من الطيبات. وتلتقي هذه الوصايا على أصول جامعة محصلتها: تقوى الله، وإخلاص النية، والعدل بين الناس، وأداء الأمانة، ومراجعة الحق، وترك الهوى والغضب، والعناية بالرعية، والمبادرة إلى العمل، والاستعداد لأداء الواجب، وتقديم الآخرة على الدنيا.. وهي معانٍ يحتاج إليها المسلم في خاصة نفسه، ويحتاج إليها من ولي أمر من أمور المسلمين بقدر ما حمّله الله من المسؤولية.

وللحديث صلة بإذن الله.

الغيرة على دين الله، وشاهد ذلك أنه لما رأى العرب قد فتحوا بلاد فارس والروم، وهم ينشرون الإسلام ويحملون لواء الدعوة إليه، خاف عليهم أن تميل نفوسهم عن التّشّرف والبداذة إلى التّرف والراحة، فيتخلّقوا بأخلاق الأعاجم وعاداتهم ويلبسوا ثيابهم فيصبحوا مثلهم، فالشعوب يظهر ضعفها بتقليدها غيرها من الأمم. فتكون تبعاً لتلك الأمم بأزيائها وعاداتها ولغتها، فتذوب شخصيتها في من تقلدّهم، حتى تنمحى حضارتها تبعاً لذوبان شخصيتها في بوتقة التقليد.

ومن هنا كانت صيحة عمر ومناداته لمحبيه ووصاياء لرعاياه: بأن يحافظوا على عاداتهم العربية التي نشئوا عليها في بلادهم وزكّاها الإسلام، كما كانت ينبوع القوة وعنوان النصر، ومن ثم أرسلها عمر مجموعة في بضعة أسطر يأمر فيها بما يلائم الجند من عادات العرب وأخلاق المسلمين قائلًا فيما أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٥٣) وابن حبان في صحيحه (١٢/ ٢٦٨):

«أترزوا وارتدوا وانتعلوا، ألقوا الخفاف - الناعمة- وألقوا السراويلات -المزركشة والكاشفة-، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل، وإياكم وزيّ التنعم وزيّ العجم، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب، وتمعدوا وأخشوشنوا وأخلّو لِقوا، واقطعوا الركب، وأنزوا على الخيل نَزْوا، وارتموا الأغراض».

وكانت هذه ضمن الوصايا الجامعة التي أرسلها أمير المؤمنين عمر إلى أمراء الأجناد، يأمرهم بها ويخاف عليهم أن تركوها أن تضعف قواهم الحسية والمعنوية أمام أعدائهم.. ومن ثم كان